أبطال الرواية وحريتهم

بقلم : بيير هنري سيمون

يكاد القصاصون والنقاد(*) يجمعون على ان بطل رواية ما لا يكون ناضجاً حياً إلا اذا اشعر القاريء باستقلاله المطلق عن خالقه المؤلف . والحق ان الروائي يصرح بان خير ابطاله من أفلت منه ، وخرج من الحدود، ولم يجلس في مكانه، وقال ما لا يُنتظر منه . أما الناقد فحالما يشعر ،في رسم شخصية ما، قصداً مبالغاً فيـــه ، وحالما يُحسّ في حركة من حركات السرد منعطفاً مبالغاً في بنائه ، يقطّب حاجبيه ويشجب هذا الأدب ذا النظرية .

ولا شك في انهما كليهما على حق . فان الرواية قد ضاعفت انتصاراتها،فأبانت عن جوهرها اكثر من ذي قبل ، وانفصلت اكثر فأكثر عن أصلها : الحكاية . ان الحكاية تُصنع لتسلّي وتبرهن انها نتاج مباشر للعقل والذكاء ؛ وكما ان خير من يحرك الدمى هو الذي يمسك بخيوطها كلها ، فأن خير حاكٍ هو كذلك من يخلق اوضح الاشخاص وأطوعهم للدلالة والبرهان : امثال جيل بلاس وكانديد وتوماس غراندورك وجيروم كوانيار . أما الرواية ، فان موضوعها ، على العكس ، الحياة نفسهـــا ، الحياة التلقائية السيّالة ، الحياة العجيبة التي لا دستور لها ، إنه لا يريد إلا ابطالاً ذوي شخصيات فريدة،غير مصنفة ، ومتحررة من الوصـاية الأبوية ؛ فالقضية ، كما يقول مورياك « ان يُترك للابطال اللامنطق واللاتحديد والتعقّد الذي يميّز الكائنات الحية . »

ويذهب سارتر في مقال شهير وجهه ضد مورياك بالذات الى ان الروائي الذي يؤمن بجوهر بشري وبدستور اخلاقي وباستعداد ركبه الاله في طبيعة الانسان ، يخفق دائماً في خلق اشخـاص مستقلين : فهو يريد دائماً ان يتحكم بحريتهم وأن يسبر اغوارهم وان يحكم على مشاعرهم واعمالهم ، وبكلمة واحدة ان يحتل مقام الله . «والله ليس روائياً صالحاً» لانه لا يترك مخلوقاته احراراً ، والرواية ينبغي ان تكون قبل كل شيء مسرح الحرية . ومع ذلك فان جان بريفو ، الذي كان بعيداً عن وجهة نظر نقد ديني ،كان يقول عن متعة قراءة رواية ما ، وهو يتحدث عن ستاندال «اننا مدعوون إلى ان نفهم من غير انقطاع، فالقاريء حاضر دائماً وهو يرى كل شيء كأنه إله . » — وهذا يعني ان بطل الرواية ، هو بعيد عـــن ان يكون حرية مطلقة ، ومشروعاً غير قابل للتحديد وللتوضيح ، بل هو بالعكس،انما يهمنا بصفته كائناً يحيط به وينفذ اليه ادراكنا ، كائناً مكشوفاً كل الكشف امام هذا الادراك ، كائناً تستجيب حريته بالذات لمنطق داخلي يسرنا اننا حللناه وفهمناه . فكيف يتم هذا اذا تركه الروائي يسير على هواه وألزم نفسه بالاّ يصوّر إلا حركاته ، من غير ان يدلف ابداً الى دنيا ارادته ؟

الحق ان من الخطأ الاعتقاد بان كائناً لا يحدّه أي قيد في طرق إحساسه وتفكيره يستطيع وقتاً طويلاً ان يظـل محمّلاً بكثافة تأثيرية او اهمية درامائيـة . وليس مردّ ذلك ان من المحظور على روائي ان يظهر افعالاً مجانية او احوالاً مختلفـــة لنفسية غير منسجمة ؛ ولكن عليه ألا يتخذ ذلك دأبه وديدنه . فان بطل الرواية لا يتفلّت من وجوب كونه شخصية متميزة أكثر مما يتفلت بطل المسرحية من ذلك . إن دستويفسكي هو نموذج الروائي اللاديكارتي الذي ردّ للخلق الروائي سيولتـه وسرّه . ومع ذلك ، فمن الذي يجرؤ على القول إن اشخاصه هم غير منسجمين ، وانهم يختلطون فيما بينهم وينحلّون ، وانهم يزجون مصاير عرضية أو قابلة للتبادل ؟ إن من المعلوم ان التصميم الاول في روايته « الابله » كان ينص على ان يكون « مويشكين » هو القاتل ؛ فلماذا غيّر الروائي تصميمه إن لم يكن بسبب انه شعر بضرورة أكبر لجريمة روغوجين ؟

واخيراً ، ما هو بطل الرواية في الحـــق ؟ إنه ، مهما كان وجهه متميزاً بارزاً ، ليس هو موجوداً خارج الكتاب كشخص ذي روح وجسد : إنه حالة من حالات المؤلف النفسية تمدّها اعجوبة شعرية حتى تبلغ بها الوف القراء فيسيغوهـا . ولكن من السذاجة التفكير ان له حياةً اخرى غير الذي نعطيه إياها. لقد لاحظ الناقد الفرنسي غايتان بيكون G. Picon ان مالرو لا يتوخى ابداً ، خلافاً لبروست وبلزاك « ان يعطي كل بطل من ابطاله صوتاً شخصياً ، ولا ان يحرّره من خالقه » ؛ فأجاب مالرو ان نزعة كبار الروائيين ، وفيهم بـــلزاك وبروست ، ليست هي خلق اشخاص بقدر ما هي خلق جوّ « عالم منسجم

— البقية على الصفحة ٧٨ —

(*) راجع العدد ١٣٨٢ من مجلة Les Nouvelles Littéraires الفرنسية.

تهرب من خطيبها الى حياة مجهولة لانه يخونهـــا وتظن ان امها او اباها طردها من قريتهـــا الهادئة الى هذه الحياة ، وهي تستطيب الحرمان ثم تنفر منه ، وتتحمل العذاب ثم تهرب منه . ثم تنتهي الى النهاية المحتومة ، وتصبح الحياة عندها يوماً بيوم ... كل يوم على حدة !

ان في اعماقها شيئاً يرسب متجمعاً متدفعاً هو حب الألم .

عاشت مضطهدة ، وسارت إلى نهاية مضطرة، ورفضت الحياة الشريفة متأبية ...

دفقة اخرى من دفقات النفس يعمر بهـــا (الحي اللاتيني) استغلها سهيل في براعـــة ورسم بها طريقه ، واسند اليها حين اخذ يشق لنفسه طريق التحرر والخلاص .

صورة تحدد من ملامح القصة منذ ان تبدو بعد ان كانت غائمة سابحة في اوهام التخيـــلات والذكريات . ولا شك إن القارىء يحس ذلك حين يقارن بين القسمين الاول والثاني ، فهو يجد في الاول مشقة في تخيل الجو العام ، فلا تـــكاد تظهر حتى ينجلي كل شيء ويتكشف الغموض ، ويتضح بها الحي اللاتيني كله ... في خيره وشره، في ضجيجه وسكونه ، في كهوفه وحاناته ، في كل شيء تطرقه هي ...

ومن هنا لانعجب حين لا يهتم الكاتب بالأمكنة التي لا تطوف بها . وليس يحق لنا مثلاً ان نسأله لماذا لم يقف الوقفات الطويلة عند البيئة الجامعية .. فجانين لم تكن جامعية !

بل لقد بلغ اهتمام الكاتب بها وبنفسه ان نسي اصحابه، فهم — فيما عدا فؤاد — ظـــلال تتحرك بضعف وتتكلم بهدوء حتى في صياحها وضخبهـــا وانطلاقها ... حتى في كفاحها في سبيل لبنان والعرب ...

واهمل بعد كل من عرفه في باريس ، فهل لم يعرف احداً في باريس؟

لذلك فمن المناسب ان نقول ان جانين كانت محور قصته وانه كان المحرك لهذا المحور ، ومن عداهما قطع تتحرك كما تتحرك قطع الشطرنج .

ومع هذا ورغم ان الرواية تبدو في بعض فصولها مهتمة بالتفاصيل اهتمام « اليوميات » بها ، ورغم اتخاذ بعض فصولها صورة القصة القصيرة ، ورغم تداول لغة الكاتب فيها الضمائر الثلاثة فيخرج على الاسلوب العربي المتواضع عليه وينجح بجماله وهدوئه وتسلسله الرشيق... اقول رغم ذلك فالحي اللاتيني اروع بناء في الرواية العربيـــة ، وليس يسعني إزاءها الا ان اكبر منها واغبط الدكتور سهيل ادريس عليها ، وكم ارجو ان يخرج بغيرها عن قريب .

احمد كمال زكي

عضو الجمعية الادبية المصرية

★

استفتاء عن الموسيقى *

الموسيقى بين فنون التعبير المختلفة اقربها الى ان تكون فناً شعبياً . بل ان من النقـــاد من يرون انها لا يمكن ان تكون غير شعبية، وربما كان في هذا القول شيء من مبالغة ، فان شخصية المؤلف الموسيقي لا تختفي تماماً وطابعه الفردي يظهر في آثاره على تعددها وان اختلف هـــذا الظهور قوة وضعفـــاً . ومهما يكن الخلاف ، فالموسيقى أوسع الفنون انتشاراً واكثرها اتصالاً بنفسية الجماعة وتجاوباً مع وجدانها وحسها ، هي الصورة الصوتية لعالمها الباطن بأوزانه وانغامه .

واذا كان الامر كذلك فلا يمكن ان يكون الجواب عن السؤال الا بنعم ، لان الفن الشعبي او شبه الشعبي لا يمكن ان يكون غير معبر عن روح اصحابه . ويكفي ان ننظر الى الجمهور العربي في استماعه للموسيقى العربية وفي تغنيه بها وموقفه من الموسيقى الغربية لنعرف ان الاولى معبرة عن روحه مهما كابرنا او انكرنا، ولنا بعد ذلك ان نتساءل اهي روح متوثبـــة كما جاء في السؤال ؟ احسب اننا في اشد الحاجة الى مراجعة انفسنا في كثير من الاحكام التي اخذت عند الناس مأخذ الحقيقة الثابتة . حقاً ان الموسيقى العربية قد تطورت في الجيل الاخير وتغيرت تغيراً ليس باليسير عن موسيقى الجيل الماضي . ولكن أهذا التطور استجابة لوثبة روحية ؟ أما انا فأشك في ذلك وارى ان نزعة التقليد الخارجية قد اشتبهت بنزعة التوثب الباطن عند كثير من مفكرينا .

وبعد ، ففرق ما بين الموسيقى الغربيـــة والموسيقى الشرقية فرق ما بين المجتمع الغربي والمجتمع الشرقي. واذا وجد في الشرق ناس يفهمون الموسيقى الغربية ويستجيب لها وجدانهم ويحسون بما فيها فمصدر ذلك كفاح شخص طويل من هؤلاء او بيئة اوربية عاشوا فيها خارج بلادهم او داخلها .

وعندي ان هذا الكفاح الشخصي الطويل واجب على من يريدون ان تكون الروح العربية متوثبة حقاً، لان هذا الكفاح سيفتح امامهم آفاقاً واسعة ويدخلهم في عالم زاخر فياض فيه عمق ونفاذ. هو كفاح لن يتقدم اليه إلا الاقوياء ممن لهم استعدادهم الخاص . والطريق اليه ليس بأن يفرض على الناس من محطات الاذاعة استماع الموسيقى الغربية الرصينة فليس من العدل ان يكره الناس على ذلك وليس هذا بدواء ناجع ايضاً . وانما الطريق ان تكثر جماعات (الفونوغراف) التي يلتقي افرادها حول هذا الجهاز الفاتن اللطيف يستمعون مـــا وسعهم الاستماع ، يعين قويهم ضعيفهم ، ويشرح من يعلم منهم لمن لا يعلم .

عبدالعزيز محمد الاهواني

(*) تأخر بالبريد وصول هذا الجواب الذي كتبه الدكتور عبدالعزيز الاهواني على الاستفتاء الذي اجرته « الآداب » في العدد الماضي . وقد رأينا نشره — على تأخره — لأهميته .

ابطال الرواية وحريتهم

— البقية من الصفحة ٨ —

وخاص » متـلائم وعبقرية كل روائي ، وحيث يضطرب ابطال محوّرون ابداً ورمزيون ؛ وعلى هذا فان استقـــلال الكائنات استقلالاً تاماً هو شيء وهمي : فهي تولد من حوار او من تمزّق للضمير الخـــلاّق ، وان « الشخص يولد من الدرام، لا الدرام من الشخص » .

والذي هو صحيح ايضاً ان الروائي الحقيقي يحترس كل الاحتراس من ان يحـــدّد وجه اشخاصه تحديداً مسبّقاً مرسوماً ؛ إنه لا يسمح للتأليف العقلاني ان يقف حركة تركيب أشد خفاء ، ولكنه منطقيّ كذلك ، نجد فيـــه الحساسيـــة والخيـــال والقوى اللاواعية بالذات تُملي على شخصية مرسومة كلمات غير مُعدَّة ، وحركات غـــير منتظرة تُفاجىء اليد نفسها التي تُمسك بالقلم . إن اشخاص رواياتنا ليسوا احراراً حرية لا محدودة وإلا فان هذه الحرية تنزع عنهم كل هوية بسيكولوجيـــة ؛ وإنما هم يكتسبون شيئاً فشيئاً ، مـــا مضينا في عجن قصتهم ، الحرية الحقيقية التي هي ان يتصرفوا وفق طبيعتهم ، اي وفق طبيعتنا نحن ، ما داموا يولدون منا .

« تعريب الآداب »

لاول مرة في اللغة العربية
ألوان من الغيرة
قصص واقعية اغرب من الخيال
للدكتور محمد فتحي
يصدر قريباً عن
مكتبة المعارف في بيروت